

آثار من أولية الشعر

في الشعر الجاهلي

للأستاذ عبد المتعال الصعيمي



ظهرت في عصرنا دعوى عريضة ، يذهب أصحابها إلى إنكار صحة الشعر الجاهلي ، وكان من أكبر ما قامت عليه تلك الدعوى أن هذا الشعر على حسب ما روى لنا يخالف سنة النشوء والارتقاء فيظهر أول ما يظهر بالغا غاية الكمال ، لا شيء ينقصه من جهة الوزن ، ولا من جهة القافية ، ولا من جهة اللفظ ، ولا من جهة المعنى ، ومثل هذا لا يمكن قبوله ، لأن سنة النشوء والارتقاء من السنن الطبيعية التي لا يشذ شيء عن حكمها ، ويجب إنكار ما يأتي على خلاف مقتضاها

فإذا قيل لهؤلاء الناس إن هذا الشعر الجاهلي كان قبله شعر قديم لم يصل إلينا ، وقد مر هذا الشعر القديم في أطوار تدرج فيها على سنة النشوء والارتقاء ، حتى وصل إلى هذا الشعر الجاهلي فجري أمره على تلك السنة أيضاً ، ولم يكن فيه شذوذ عنها ، يتخذ ذريعة إلى إنكار صحته ، والطمع في نسبته إلى عصره

إذا قيل لهم هذا قالوا إن هذا الشعر القديم حديث خرافة أيضاً ، لأنه لو صح وجوده لكانت له آثار ولو قليلة في الشعر الجاهلي ، ولم يتقطع أثره هكذا مرة واحدة ، لأن هذا يخالف سنة النشوء والارتقاء أيضاً ، فهي كما قضى بالتدرج من غير الأصلح إلى الأصلح ، قضى ببقاء آثار قديمة فيما تدرج إليه ، لتكون شاهدة بهذا التدرج ، وهي للمروفة في مذهب النشوء والارتقاء باسم الأعضاء الأثرية

ولا شك أن هذا اعتراض له قيمته ، لأنه يقوم على شاهد من العلم ، فلا يقوم في وجهه إلا شاهد يعتمد على العلم كما يعتمد ويتفق مع ما قضى به مذهب النشوء والارتقاء من سنة التدرج ولا يكفي في إثبات ذلك الشعر القديم الإشارة إليه في مثل قول امرئ القيس :

عوجاً على الطلل الخجل لأننا نبكى الخيار كما بكى ابن خنامل

وقول عنترة :

هل غادر الشعراء من مبدع أم هل عرفت الدار بعد توهم

وقول زهير :

ما أُرانا تقول إلا مُماراً أو معاداً من لفظنا مكروراً
لأنه لا قيمة لهذه النصوص إذا لم يوجد في الشعر الجاهلي آثار من ذلك الشعر القديم تشهد بوجوده ، وتبين بعضاً من حاله قبل أن يصل إلى طور الشعر الجاهلي ، لأنه لا يعقل أن يظفر الشعراء كلهم إلى هذا الطور كما ظفر مهلهل وامرؤ القيس وغيرها من القدماء ، ولا يوجد بينهم متخلفون قد تشبهوا بشيء مما كان عليه الشعر قبل هذا الطور

فذلك الشعر القديم لا بد أنه لم يكن مستقيم الوزن ، ولم يكن يجري على هذه البحور التي يجري عليها الشعر الجاهلي ، فإن أثر ذلك في هذا الشعر ؟

وهو أيضاً لا بد أن يكون مضطرب القافية ، لا يجري فيها على سنن مُطَّردة ، ولا يتأق فيها كما تأق الشعراء الجاهليون ، فإن أثر ذلك في شعرهم ؟

فإذا كان ذلك الشعر قد وجد حقاً ، فإنه لا بد أن يبق أثر من فساد وزنه وقافيته في الشعر الجاهلي ، حتى يكون دليلاً ناطقاً بأنه درج على سنة التدرج ، ويكون لوجوده فيه دلالة الأعضاء الأثرية على أصلها ، وهي دلالة لا تقبل شكاً ، ولا يمكن أن يجادل فيها أولئك الذين ينكرون صحة الشعر الجاهلي .

وقد عثرت على بعض من هذه الآثار في هذه الأيام ، ولا أنكر أنها في كتب متناولة بين الناس ، ولكنهم يعمرون عليها ولا يعرفون قيمة دلالتها ، ولا يلتفتون إلى أنها آثار من ذلك الشعر القديم التي اضطوى عنا خبره ، ولا يدركون أن منزلها في الدلالة على ذلك الشعر ، كثرة تلك الآثار المطوية في بطون الأرض ، في دلالتها على تاريخ آياتنا الأقدمين .

ومن وجد في شعره بعض هذه الآثار عبيد بن الأبرص ، وهو شاعر قديم معاصر لمهلهل وامرئ القيس ، وقد روى صاحب الأغاني عن محمد بن سلام أنه قال :

عبيد بن الأبرص قديم الذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله :

أَقْرَ من أَهله مَلْحُوبٌ

ولا أَدْرِ له ما بَدَ ذلك

وهذه القصيدة التي ذكرها ابن سلام أشهر قصائد عبيد ابن الأبرص ، ولكنها مع هذا مضطربة الوزن ، مختلة القافية ، ولا يزال علماء العروض مختلفين في أمرها ، فمن قائل إنها من البسيط ، ومن قائل إنها من الرجز ، ومن قائل إنها خليط منهما ، وذلك أنك تراه يقول في مطلعها :

أَقْرَ من أَهله مَلْحُوبٌ قَالِقُطَيَّاتٌ قَالِدَتُوبٌ

وهنا من مَخْلَعِ البسيط ، ثم تراه يقول :

أَفْلَحَ بِمَا شئتُ قَدُّ يَدْرُكُ بِالضِّمِّ وَقَدْ يُجْدَعُ الْأَرِبُ
وَشَطْرُهُ الْأَوَّلُ مِنَ الرِّجْزِ ، وَشَطْرُهُ الثَّانِي مِنْ مَخْلَعِ الْبَسِيطِ
ثم يقول بعد هذا في اختلال وزن واضطراب قافية :

لا يَعْظُ النَّاسُ مِنْ لَا يَعْظُ الدُّهُرُ وَلَا يَنْفَعُ التَّلْيِيبُ
إِلَّا سَجِيَّاتُ مَا الْقُلُوبِ وَكَمْ يَصْبِرْنَ شَانِتًا حَيْبُ
وقد ذكر ابن رشيقي أن هذه القصيدة كادت تكون كلاماً غير موزون بملء ولا غيرها ، حتى قال بعض الناس : إنها خطبة ارتجلها ، فآثرن له أكثرها

والحق عندى أن هذه القصيدة تمثل أولية الشعر العربي خير تمثيل ، وتبين أنه لم يكن له أوزان محدودة بتقيد بها ، ولا بحجور متميزة لا يتعداها ، ولا تجري فيه الحركات والسكنات على لحن مطرد ، لا يتغير ولا يتبدل في القصيدة الواحدة ، وأن عبيداً في هذا يمثل بين شعراء عصره حال الشاعر المتخلف ، لأنه لم يتنبأ له من أسباب النهوض ما تنبأ لهم ، فجري في شعره مجراه الأول ، ولم يسأ بما تقيد به شعراء عصره في أمر الوزن

ومما يروى لبيد أيضاً من الشعر المختل الوزن قوله :

هِيَ الْحُمْرُ تَكْنِي الطَّلَا كَمَا الدُّبُّ يَكْنِي أَبَا جَعْدِهِ
ومما وقع من هذا الشعر قول علقمة الفحل ، وهو شاعر قديم دافقت عنه بشعري إذا كان في الدُّدِ أَجْدُ
فَكَانَ فِيهِ مَا أَمَّاكَ وَفِي تَسْمِينِ أَسْرَى مَقْرَنِينَ فِي صَفْدِ
دَافِعٍ قَوِيٍّ فِي الْكُسْرِ إِذَا طَارَ بِإِظْهَارِ الظُّلْمَةِ وَقَدْ

فأصبحوا عند جفنة في الأء لال منهم والحديد عقد
إذ مجنب في المجنبن وفي التكهة عن باد ورشد
فهذه القطعة مما أدخل في جملة شعر علقمة ، وهي مختلة الوزن حتى قال بعضهم إنها ليست بشعر

وأما القافية فإنها لبقها كانت أحكامها تخفى على كثير من الشعراء الجاهلين ، فبقى فيها كثير من آثار أولية الشعر كالإقواء والسناد وغيرها من عيوب القافية ، حتى قيل إن الإقواء كان مذهب العرب في شعرهم ، ومن ذلك قول امرئ القيس :

أَحْظَلُ لَوْ حَامِئُ وَصَبْرُكُمْ لَا تَنْتَبِهُ خَيْرًا صَالِحًا وَلَا رِضَانِي
ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى ثَقِيَّةً وَأَوْجُهُمْ عِنْدَ الشَّاهِدِ غِرَانُ
عَوَيْرُ وَمِنْ مِثْلِ الْعَوِيرِ وَرَهْطُهُ

وَأَسْعَدَ فِي لَيْلِ الْبِلَابِلِ صَفْوَانُ
قد أصبحوا والله أصفام به أَرَبٌ بِأَيْمَانٍ وَأَوْفَى بِبَحْرَانِ
وكذلك كان النابغة الذبياني يقوى في شعره - وهو من متأخري شعراء العصر الجاهلي - وكان لا يعرف أن الإقواء من عيوب القافية ، ومن إقوائه قوله في داليته :

أَمِنْ آلِ مَيَّةٍ رَأَيْتُ أَوْ مُنْتَدٍ عَجْلَانِ ذَا زَادٍ وَغَيْرِ مُزَوِّدٍ
زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنَّ رَحْلَتَنَا غَدًا وَبِذَاكَ خَبَرْنَا الْغُرَابُ الْأَسْوَدُ
وقوله أيضاً :

سَقَطَ النِّصِيفُ وَلَمْ تَرُدْ إِسْقَاطَهُ فَتَتَاوَلَتْ وَاقْتَتَا بِالْيَدِ
بِمُخَضَّبٍ رَخَصَ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَّمْ نَبَاكَ مِنَ اللَّطَافَةِ يُفَقِّدُ
فلما ظهر الإسلام نهض العرب ورق وجدانهم ، ولطف ذوقهم ، فعرفوا هذه العيوب وتجنبوها ، واقتضوا بذلك على الشعراء قبلهم ، كما قال ذو الرُّمَّة :

وَشِعْرٌ قَدْ أَرِقْتُ لَهُ طَرِيفٌ أَجَانِبُهُ الْمُسَانَدَ وَالْمَحَالَا
وقال جرير :

فَلَا إِقْوَاءَ إِذَا حَرَسَ الْقَوَافِي بِأَفْوَاهِ الرِّوَاةِ وَلَا سِنَادَا
وبهذا استقامت قوافي الشعر ، وانتفت أوزانه ، بعد أن مرَّ في تلك الأطوار ، ولم يشذ في ذلك عن سنة النشوء والارتقاء غير المختال الصعبي